مغاربة اسبانيا يتحايلون على الأزمة لكسب قوت يومهم؟

فرضت الأزمة على بعض المهاجرين المغاربة بإسبانيا التأقلم معها

جسر تجاري من «البغرير» والحلويات إلى إسبانيا وملابس «الصولد» إلى المغرب

«الأزمة الاقتصادية في إسبانيا ليست كلاما أو رد فعل فقط» يقول علي المهاجر المغربي بالديار الإسبانية منذ مدة. كتب الكثير عن هاته الأزمة وتحدث الكثيرون عنها، لكن من يعيشها ليس كمن يسمع عنها، تلك حقيقة الواقع الإسباني حاليا، والمتأثر بشكل كبير من هاته الأزمة أكثر من المغاربة المقيمين به، جلهم يتطبعون مع الأزمة وبعضهم يستفيد منها بطريقة إيجابية، فيما آخرون يتخوفون من المستقبل الغامض، وبين هؤلاء جميعا يبقى الأكثر تضررا المواطنون الإسبان، الذين اعتادوا «حياة الرفاهية» وغدوا ملزمين بجدولة أجورهم والتقتير في صرفها، وإلا سيجدون أنفسهم مضطرين للاقتراض مجددا..

جنوب إسبانيا: مصطفى العباسي

مدينة من جنوب إسبانيا

تتجول ببعض شوارع «مالقا»، «غرناطة» وغيرهما من المدن الأندلسية، أعداد مهمة من المواطنين الإسبان من أعمار مختلفة، تجدهم يشاركونك الجولة كمن «لا شغل له»، وجوه تتكرر مشاهدتهم يوميا في نفس الأماكن تقريبا، بعضهم يختار الرياضة على جنبات «الكورنيش»، وآخرون بالحانة يأخذون كؤوس «البيرة»، فيما بعض منهم يتجول هنا وهناك.. «هادوا في البارو (عطالة)، مخدمينشي مدة هادي» يوضح «علي» مضيفا «كاين اللي هادي ثلاث سنوات مخدمش، الأزمة راه أثرت على الإسبانيين أكثر من المغاربة والمهاجرين».

الأزمة التي «قصمت ظهر» الإسبان

الإسبان الذين كانوا يتقاضون أجورا لا بأس بها، وجدوا أنفسهم اليوم يواجهون مشكل البطالة الإجبارية، فبعد أن كان المنزل يضم أربعة مشتغلين، الأب، الزوجة والابنان، تغير الوضع وأصبح واحد فقط يشتغل ويعيل الأسرة، فيما الباقون يستفيدون من منحة البطالة (البارو) والتي لا تتجاوز 400 أورو (حوالي 5000 درهم)، مبلغ لا يجدي نفعا في أوربا المعروفة بغلاء المعيشة بها، فيصبحون ملزمين بتغيير نمط عيشهم. نمط العيش يبقى محدودا، المقاهي شبه فارغة على طول الأسبوع، المطاعم بدون زبناء عدا ليلة الجمعة والسبت بالنسبة لمن مازال لها حظ، مشهد مختلف كليا عما كان عليه الوضع منذ خمس سنوات تقريبا بالمنطقة ذاتها.

بوسط مدينة «مالقا» القلب النابض للسياحة الإسبانية، الأزمة واضحة تماما، بين محل ومحل تجد محلات مغلقة، وغالبية المقاهي ومحلات الوجبات الخفيفة فارغة تماما، ولا يظهر منها إلا لوحاتها الإشهارية، التي تحمل أثمنة مخفضة جدا لجلب الزبناء، بالداخل عامل واحد أو عاملان في أحسن الأحوال، يقومان بكل ما يتطلبه الأمر لتقديم الخدمات للزبناء، من إعداد المشروبات، توزيعها، جمع الكؤوس الفارغة، النظافة، والحساب... فحتى بعض محلات الوجبات العالمية المعروفة، أصبحت شبه فارغة، ولا تتوفر إلا على عاملتين اثنتين. العمل هنا صار بعقود محدودة المدة وبعضها يشير إلى الأجر كنسبة من دخل المحل، «هادو خدامين بالنسبة المحصل عليها، معندهومشي المانضة، إلى باعوا يتخلصوا ما باعوشي معندهم والو» يقول شاب مغربي سبق له العمل في محل مماثل..

لا تعجب أو تستغرب أن ترى شابات في ربيع العمر، وبـ «مكياجهن» يقمن بغسل الشارع بالماء والصابون، وهن يعملن في شركات النظافة، التي كانت مقتصرة في الغالب على المهاجرين من الذكور...

على طول المنطقة الساحلية المعروفة بـ «كوسط ديل صول»، لم يكن المشهد مفرحا فجل المحلات مغلقة، انطلاقا من «ماربيا» حتى «المونيكار»، «مالقا» وغيرها من الشواطئ الممتدة على الساحل، وما بقي مفتوحا من تلك المحلات في هاته الفترة من السنة، حيث الجو ساخن وحيث كانت عطلة «الأسبوع المقدس»، ذروة السياحة الأوربية، لم يتغير المشهد كثيرا، الأمور بقيت على حالها كما في الفترة الشتوية، فالأزمة الأوربية عامة لم تسعف الكثير من الأوربيين للخروج في رحلات بعيدة، وبالتالي تضرر القطاع بشكل كبير ومعه أحلام الإسبانيين وحتى المهاجرين بمختلف جنسياتهم، العاملين في هذا القطاع ولو مؤقتا.

«كاين اللي عندو عقود عمل لساعتين» يقول باستهزاء «علي» الفاعل الجمعوي المغربي بـ «مالقا»، ويفسر قائلا «كيقبلو بديك العقود بسبب الوضع الحالي، وهو لا يعني أنك تشتغل ساعتين فقط، لكنها تبقى قائمة في حال زيارة مفتشي الشغل، أو طردك من العمل، حيث لا حق لك في أي مطلب، بما فيها التصريح بأيام العمل وغيرها»، إنها خطة «جهنمية» اخترعها البعض للإفلات من الحقوق المتوجبة للعمال في القانون الإسباني، بسبب الأزمة ومحدودية المدخول بالنسبة لأصحاب تلك المقاولات، خاصة منها المطاعم والمقاهي.. والأمر لا يتعلق بالمهاجرين هنا بل «باولاد البلد» الإسبانيين أنفسهم. وقد لا تعجب أو تستغرب أن ترى شابات في ربيع العمر، وبـ «مكياجهن» يقمن بغسل الشارع بالماء والصابون، وهن يعملن في شركات النظافة، التي كانت مقتصرة في الغالب على المهاجرين من الذكور...

المكان شبه موحش فقط بعض المحلات التجارية مازالت مفتوحة، الأخرى مغلقة أو تصفي آخر ما تبقى لديها، في استعداد واضح لإغلاق وتسريح للعمال، تلك حالة كبريات التجمعات التجارية بضواحي المدن الإسبانية بالجنوب، وهو نفس حالها بالوسط والشمال، كما أكد بعض المغاربة المقيمين هناك. إنها فعلا ملامح أزمة حقيقية تلك التي تظهر في هاته المحلات التي كانت ولوقت قريب تنبض حيوية، «هانتا حتى الطوبيس دايرينو فابور لهنا، امصاب إجبروا اللي يجي ويشري» يقول علي مستهزئا. فعلا فالحافلة مجانا من وسط مالقا وحتى «هاوس» ذلك المجمع التجاري الذي أغلق أكثر من نصفه، وما تبقى من المحلات تبيع بثمن زهيد عسى أن «تنقذ ما يمكن إنقاذه».

المغاربة المهاجرون يتطبعون مع الأزمة

قد تكون المقاربة غريبة بعض الشيء، لكن قد يصدق عليها أحيانا المثل القائل «مصائب قوم عند قوم فوائد»، الأزمة الإسبانية كانت لصالح بعض المهاجرين المغاربة، وكانت أصلح في كثير من الأحيان، لأولائك الذين اعتادوا زيارة الجنوب أساسا خلال العطل المدرسية المغربية. فموجة الغلاء التي كانت تعرفها المنطقة انخفضت بشكل كبير على مستويات مختلفة، بما فيها الإقامة سواء بالفنادق أو المنازل المعروضة للكراء خلال العطل، أو بالنسبة للمقيمين هناك بشكل دائم. ملصقات إشهارية تملأ أعمدة الكهرباء والأسوار وحتى واجهات بعض المحلات، تعرض منازل للكراء بأثمنة بخسة مقارنة مع مستوى العيش بإسبانيا، وأخرى بالنسبة للزوار قد تقل عن كرائها بمراكش أو بإحدى المدن الشمالية..

مغاربة الأندلس متأثرون بدورهم بهاته الأزمة، جلهم فقدوا عملهم، خاصة وأنهم كانوا يشتغلون في قطاعين تضررا كثيرا: البناء والمطاعم. هؤلاء المهاجرون وجدوا أنفسهم بلا عمل بعد إغلاق جل تلك المطاعم، والتقليص من عدد عمالها. عشرات المطاعم أغلقت أبوابها بمنطقة «كوسط ادي صول»، والتي كانت تدر على أصحابها «ذهبا» صيفا وشتاء على حد سواء، لكنها أصبحت عشا للعناكب والطيور هاته الأيام. المحظوظ من أصحابها استطاع بيع محله وتغيير نشاطه التجاري، فيما آخرون لم يجدوا مشتريا لمحلاتهم، وتخلصوا من الآليات ليعودوا إلى بلدانهم بالنسبة للمهاجرين الأمريكيين والبريطانيين، على أمل العودة ربما مستقبلا بعد تحسن الأوضاع، فيما الإسبانيون يفضلون تعويض «البارو» الضعيف، على تحمل مسؤوليات محل وعمال لا يدر عليهم نفعا..

ملامح المغاربة والعرب على حد سواء معروفة، نفس الوجوه تجدها تلف الشوارع ذاتها، وتلتقي في المقهى نفسها مساء، يتحدثون ويتفرجون على التلفاز، لا شيء جديد، بالنسبة لهم الحديث غالبا ما يرتكز حول البحث عن عمل، والمستقبل الغامض الذي ينتظرهم..

كثير منهم فضلوا العودة إلى المغرب للتدثر بحضن الوطن في زمن الأزمة، لا حول لهم ولا قوة على تحمل مصاريف كبيرة جدا حتى وإن استفادوا من منحة البطالة. «هاد العام معطوشي حتى المساعدة ديال الدراسة، وزولوا غالبية المطاعم المدرسية»، يوضح ولي أمر أطفال يدرسون بإحدى المؤسسات التعليمية بـ «مالقا»، «شرينا تقريبا 400 أورو ديال الأدوات لكل واحد من الأطفال، مردو لناشي منها حتى 70 أورو مكمولة، وأخيرا ألغوا الإطعام المدرسي وطالبوا الآباء بـ5 أورو عن كل وجبة بالمؤسسة لأبنائهم»..

تدبر الوضع قد يكون صعبا بالنسبة للبعض، لكنه سهل بالنسبة لآخرين خاصة ممن لهم خبرة في «تدبر الأزمات»، فتعويضات البطالة تضمن لهم حدا أدنى من المال لتدبر أمورهم، لكن الكثير من الشبان المغاربة المقيمين هناك يستفيدون بشكل غير مباشر من الأزمة، حينما يستغلون فرص التخفيضات الكبيرة التي تعرفها عدد من المحلات الكبرى، خاصة تلك التي تبيع ملابس عالمية لها مكانتها، فيشترونها بكميات كبيرة ويقومون بنقلها إلى المغرب لبيعها بالثمن الأصلي. مدخول إضافي قد يوفر مبالغ مالية محترمة للكثيرين، خاصة عندما تنجح الخطة مرة أو مرتين في الشهر، والتي تضمن دخلا يفوق أحيانا ما كانوا يحصلون عليه في فترات العمل وتعبه الكبير...

عدد كبير من المهاجرين أصبحوا شبه مستقرين بالمغرب، رغم الرقابة الإسبانية عليهم خاصة ممن يستفيدون من تعويضات البطالة، والملزمون بالبقاء هناك حتى ولو ضاقت بهم سبل العيش.

المغرب لا يسامح في أبنائه !

جملة يرددها الكثير من المغاربة في إسبانيا، إنها ليست إشهارا للحكومة ولا علاقة لها بـ «المجهودات» المبذولة من طرف المصالح المختصة بالجالية، إنها «طنجرة الوالدا» يقول أحدهم وآخر يقول «السخرة المغربية». فالكثير من المهاجرين خاصة الموجودين بالجنوب الإسباني، ينزلون هاته الأيام مرة أو مرتين في الشهر إلى المغرب، مستغلين انخفاض أثمنة البواخر في انتظار فترة العبور، حيث يقومون بشراء كل ما يلزمهم من احتياجات أساسية، بل منهم من تعد له الأسرة بالمغرب ما يمكن أن يحتاجه ابتداء من «البغرير» إلى الحلويات وحتى «العطرية» وما لا يخطر على البال، تحمله حقائبهم الكبيرة لهذا الغرض، ويكون الرابح الكبير من استطاع أن يحمل في ذهابه بعض الألبسة والأشياء الممكن بيعها «جملة» بالمغرب.

عدد كبير من هؤلاء المهاجرين أصبحوا شبه مستقرين بالمغرب، رغم الرقابة الإسبانية عليهم خاصة ممن يستفيدون من تعويضات البطالة، والملزمون بالبقاء هناك حتى ولو ضاقت بهم سبل العيش. في الغالب الأسر المغربية هناك لم يعد يشتغل بها سوى النساء، خاصة اللواتي يشتغلن في الأعمال المنزلية، فيما جل الرجال هم في عطالة منذ فترات متفرقة تطول أو تقصر، ومنهم من مازالت له آمال في إيجاد عمل مع اقتراب الفترة الصيفية ببعض الفنادق والمطاعم ولو بعيدا عن منزله ومدينته التي تقيم بها الأسرة. ويدفعهم لتهيئة ملفات طلب العمل والتجول بين تلك الفنادق والمطاعم الموجودة على طول الشريط الساحلي..

يوما بعد يوم يفقد الحزب الشعبي شعبيته بالشارع الإسباني، ولو بعد أشهر قليلة على فوزه في الانتخابات، فقد تراجع عن وعوده الانتخابية سريعا بل إن الكل أصبح يشتكي من «موازناته» تلك التي تؤثر على الإسبانيين كما تؤثر على المهاجرين. في ظل واقع لا يمكن أن يحسه إلا من يعيشه أو من رآه، لكن كل التخمينات تدفع بكون الأمور قد تزداد سوء خلال الأشهر القليلة المقبلة...